

حكايات غيرت الدنيا



محسن محمد محسن

## الطفل والغزال الجريح

١

تبدأ حكايتنا في النّمس ، وتنطليق إلى ما لا  
نهاية .

وهي ليست حكاية واحدة ، ولكنها عدة  
حكايات .. حكايات ستستمر وتعيش طالما عاش  
على وجه الأرض إنسان .

إنها قصة كفاح الإنسان في سبيل البقاء .. وهي  
بذلك حكاية كل واحد منا .

بدأت الحكاية .. حكاية الإنسان مع غيره من  
المخلوقات على الأرض ، منذ بدأت الخليقة ، فهي  
كما قلنا قصة الكفاح في سبيل البقاء .

ومن بين هذه الحكايات ، حكاية الطفل الصغير  
« فَنَسِينُزْ بَرِسْتِينُزْ » .. هو طفل صغير مثلكم تماما ،  
لا يَخْتَلِفُ عنكم فى شىء . عاشَ مع أُسْرَتِهِ فى قَرْيَةٍ  
« جَرافْتَبِرْج » بالنمسا ، وكانتْ مشَاهِدُ الْجَمَالِ الَّتِى  
أَبْدَعَهَا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، تُحِيطُ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ  
الصَّغِيرَةِ . وَكَانَ بَطْلُ حِكَايَتِنَا الصَّغِيرُ يُحِبُّ الْحَيَاةَ ،  
وَيُحِبُّ مَا أَبْدَعَهُ الْخَالِقُ فِيهَا . وَكَانَ — كَأَىُّ طِفْلِ —  
مُتَفَتِّحًا لِلْحَيَاةِ وَالْمَرَحِ ، يَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الثَّلَالِ  
الْخَضِرَاءِ الَّتِى تُحِيطُ بِقَرْيَتِهِ ، يُمَتِّعُ عَيْنِيهِ بِمَا أَبْدَعَهُ  
الْخَالِقُ مِنْ جَمَالٍ ، فى الغَايَةِ ذَاتِ الْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ ،  
وَالنَّبَاتَاتِ الْعَجِيبَةِ ، وَالْحَيَوَانَاتِ الطَّلِيقَةِ ، وَيَلْعَبُ فى  
انْطِلَاقِ وَسَعَادَةِ ، حَوْلَ نَبْعِ مَاءٍ جَارٍ فَوْقَ أَحَدِ  
الثَّلَالِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ ..

كَانَ « فَنَسِينُزْ » الصَّغِيرُ ، يَلْعَبُ كِعَادَتِهِ عِنْدَ نَبْعِ



( الطفل والغزال الجريح )

الماء ، عندما رأى غزالاً جريحاً يعرجُ في مشيته نحو  
النَّبع ، فاختبأ « فَنَسِيْزُ » وراءَ إحدى الأشجار ، وراح  
يُراقِبُ الغزال . وتعجَّب « فَنَسِيْزُ » عندما رأى الغزال  
يجرُّ ساقه الجريحة في صعوبة ، ويغمسها في النَّبع  
تحت المياه المتدفقة . وبقي الغزال كذلك مدة ،  
تاركاً المياه تغمر جروحه . ولاحظ الطفل أن الغزال  
ارتاح لما فعله ، فكفَّ عن التوجُّع والأنين ، ثم سحب  
قدمه مبتعداً عن النَّبع . كما لاحظ الطفل أن الدَّم  
الذى كان ينزف من قدم الغزال توقف .

وانصرف الطفل إلى اللعب ، ناسياً حكاية الغزال  
الجريح ، ثم عادَ إلى منزله يتناول طعامه .  
ولما كان « فَنَسِيْزُ بريسيْزُ » قد تعودَ على اللعب  
في نفس المكان كلَّ يوم ، فقد تعجَّب عندما رأى  
الغزال الجريح نفسه ، يعودُ إلى النَّبع في اليوم التالي .  
فاختبأ بسرعة كما فعل من قبل ، وأذهشه أن



يَرَى الْغَزَالَ يَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلَ بِالْأَمْسِ ، فَيَغْمِسُ قَدَمَهُ فِي  
الْمَاءِ الْمُتَدَفِّقِ ..

وَضَلَّ « فَنَسِينَز » يَذْهَبُ إِلَى النَّبْعِ كُلِّ يَوْمٍ ،  
وَيَخْتَبِئُ وَرَاءَ الشَّجَرَةِ ، وَيَرَى الْغَزَالَ وَهُوَ يَجِيءُ إِلَى  
النَّبْعِ ، وَيَفْعَلُ نَفْسَ الشَّيْءِ . إِلَى أَنْ جَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي  
انْقَطَعَ فِيهِ الْغَزَالُ عَنِ الْحُضُورِ ، فَعَلِمَ الطُّفْلُ أَنَّهُ قَدْ  
شَفِيَ مِنْ جِرَاحِهِ .

وَفِي نَفْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، بَيْنَمَا « فَنَسِينَز » بَرِسْتِينَز  
يَعُودُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِالْقَرْيَةِ ، كَانَتْ تَنْتَظِرُهُ عَلَى الطَّرِيقِ  
مُفَاجَأَةً أَلِيْمَةً . فَبَيْنَمَا كَانَ يَعْبرُ الطَّرِيقَ ، وَيُفَكِّرُ فِي  
الْغَزَالِ ، وَكَيْفَ شَفِيَ جِرَاحُهُ مِنَ الْمَاءِ الْقَرَّاحِ ، دُونَ  
أَيِّ عِلَاجٍ آخَرَ ، إِذْ دَهَمَتْهُ عَرَبَةٌ الْبَرِيدِ الْمُنْطَلِقَةُ  
بِسُرْعَةٍ ، وَهُوَ شَارِدٌ عَنْهَا ، فَهَشِمَتْ أَضْلَاعَهُ ،  
وَطَرَحَتْهُ عَلَى الْأَرْضِ فَاقِدَ الْوَعْيِ .

وَحَمَلَ الْمُتَجَمِّهُونَ الْغُلَامَ إِلَى مَنْزِلِ أُسْرَتِهِ

الْمَنْكُوبَةِ ، حَيْثُ قَرَّرَ الْأَطِبَّاءُ أَنَّهُ لَنْ يُشْفَى أَبَدًا ، وَأَنَّهُ  
لَوْ شُفِيَ فَبِمُعْجَزَةِ إِلَهِيَّةٍ ، إِلَّا أَنَّهُ سَيَعِيشُ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ ،  
بِعَاهِدَةٍ مُسْتَدِيمَةٍ .



وَمَرَّ أُسْبُوعٌ وَالْغُلَامُ رَاقِدٌ فِي سَرِيرِهِ دُونَ حَرَكَ ،  
بَيْنَمَا أُمُّهُ الْمِسْكِينَةُ تُحَاوِلُ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ أَنْ تُسَيِّقَهُ  
كُوبًا مِنَ الْعَصِيرِ ، حَتَّى لَا يَمُوتَ ، وَهِيَ سَاهِرَةٌ تَبْكِي  
إِلَى جِوَارِ فِرَاشِهِ ، وَتَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَ طِفْلَهَا ،  
وَيَرْحَمَهَا مَعَهُ .

وَفِي عُمُرَةِ الْأَلَمِ الشَّدِيدِ ، فَتَحَ « فَنْسِينُز » عَيْنَيْهِ ،  
وَنَظَرَ إِلَى أُمِّهِ ، فَرَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ فَرَحَى ،  
وَشَكَرَتْ اللَّهَ أَنْ اسْتَجَابَ لِدُعَائِهَا .

وَاقْتَرَبَتْ مِنْ وَلَدِهَا ، وَسَأَلَتْهُ فِي لَهْفَةٍ :

— مَاذَا تُرِيدُ يَا صَغِيرَى ؟

كَانَ « فَنْسِينُز » رَغْمَ آلامِهِ الشَّدِيدَةِ — لَا سِيَّما وَهُوَ

صَبِيٌّ صَغِيرٌ — لَا يَزَالُ يُفَكِّرُ فِي الْغَزَالِ الْجَرِيحِ ،  
فَأَجَابَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ لَا يَكَادُ يُسْمَعُ :  
— أَرِيدُ مَاءً بَارِدًا كَثِيرًا .

وَتَحَرَّكَ الصَّبِيُّ فِي فِرَاشِهِ بِقُوَّةٍ إِرَادَةٍ عَجِيبَةٍ ، مِمَّا  
جَعَلَ أُمَّهُ الَّتِي جَاءَتْ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ ، تَصْرُخُ مِنْ خَوْفِهَا  
عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ طَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَنْقَعَ الْأَرِبَاطَةُ فِي ذَلِكَ  
الْمَاءِ الْبَارِدِ ، ثُمَّ تَرْبِطُهَا وَهِيَ مُشَبَّعَةٌ بِالْمَاءِ حَوْلَ  
صَدْرِهِ .

وَمَا أَنْ فَعَلَتْ أُمُّهُ ذَلِكَ ، حَتَّى رَاحَ الصَّبِيُّ فِي نَوْمٍ  
عَمِيقٍ .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ كَثَّرَ الصَّبِيُّ مَا فَعَلَهُ بِالْأَمْسِ ، ثُمَّ  
وَاطَّبَ عَلَى ذَلِكَ شَهْرًا كَامِلًا ، تِمَائِلَ بَعْدَهُ لِلشِّفَاءِ ،  
تِمَامًا مِثْلَمَا حَدَثَ لِلْغَزَالِ الْجَرِيحِ . وَتَسَامَعَ النَّاسُ  
بِالنَّبَأِ ، وَتَعَجَّبُوا مِنْهُ غَايَةَ الْعَجَبِ .

وَلَمْ تَمْضِ عَلَى شِفَاءٍ « فَنَسِينُز » أَيَّامٌ ، حَتَّى سَقَطَ



عُمْدَةُ الْقَرْيَةِ مِنْ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ ، وَكُسْرَتْ سَاقِهِ ،  
وَضَلَعٌ مِنْ أَضْلَاعِهِ .

وَذَهَبَ « فَنَسِينُز » لَزِيَارَتِهِ ، ثُمَّ رَاحَ يُعَالِجُهُ كَمَا  
عَالَجَ نَفْسَهُ ، فَخَفَّفَ عَنِ الْعُمْدَةِ آلامَهُ ، وَمَا زَالَ  
يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ حَتَّى شَفِيَ تَمَامًا ، وَخَرَجَ يُمَارِسُ عَمَلَهُ مَرَّةً  
أُخْرَى .

وَمِنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، عَرَفَ الصَّبِيُّ « فَنَسِينُز » أَنَّ  
الْكَمَادَاتِ الْبَارِدَةَ - وَالسَّاخَنَةَ كَذَلِكَ - لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ  
فِي شِفَاءِ الْجُرُوحِ وَالْكُسُورِ . وَرَاحَ الصَّبِيُّ يَعُودُ  
الْمُصَابِينَ بِمِثْلِ حَالَتِهِ فِي قَرْيَتِهِ وَالْقَرْىِ الْمُجَاوِرَةِ ،  
دُونَ أَنْ يَكْسِبَ شَيْئًا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ . وَقَدْ شَفِيَ  
الكَثِيرُونَ بِطَرِيقَتِهِ الْمُبْتَكَرَةِ ، حَتَّى أُطْلِقَ عَلَيْهِ النَّاسُ  
لَقَبَ الْقِدِّيسِ الصَّغِيرِ .

وَبَدَأَ الْأَطِبَّاءُ فِي قَرْيَتِهِ وَالْقَرْىِ الْمُجَاوِرَةِ ، يُهَاجِمُونَ  
الصَّبِيَّ وَيَتَّهِمُونَهُ بِالسَّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ ، إِلَى أَنْ أَعْلَنَ وَاحِدٌ

منهم للجميع ، أن الصَّبِيَّ برىءٌ مِمَّا نُسِبَ إليه ، إذ  
قامَ هو نفسه بِتَجَرِبَةِ العِلاجِ بِالكَمَّادَاتِ الباردةِ  
والسَّاخنةِ ، ونَجَحَ في شِفَاءِ حالاتٍ كثيرةٍ منَ  
الرُّضوضِ والكُسورِ .

## ٢

ومَرَّتِ الأَيَّامُ ، وذاتَ يومٍ من عامِ ١٦٣٨ ، قامَ  
صَبِيٌّ آخَرُ منَ أمريكا الجنوبيَّةِ ، بِتَحْقِيقِ مُعْجَزَةٍ  
جَدِيدَةٍ ، منَ مُعْجَزَاتِ اللَّهِ في خَلْقِهِ .  
كَانَ حَاكِمُ بِيرو ، الكونت « سِينَكونا » ، يَأْمُرُ  
رِجَالَهُ بِجَلْدِ بَعْضِ سُجَنَائِهِ مِنَ الهُنُودِ الحُمْرِ ، جزاءَ  
تَمَرُّدِهِم عليه ، إذ دَخَلَ عليه ابْنُهُ الصَّغِيرُ ، وَهَمَسَ في  
أُذُنِهِ :

— إِنَّ أُمِّي مَرِيضَةٌ جَدًّا ، قد أَصَابَتْهَا الحُمَّى ،

وهي في حالة يرئى لها ، تصرخ وتهتف باسمك .

عذر « سيكوبا » امك ، وسارع إلى روحته  
فوحده ترنعتن وتصرخ من لأج ، وتضت أل بصعوا  
عبيها مريدا من الأعطاة الصوفية ، إذ أنها ترتجف من  
شدة البرد . حس « سيكوبا » حنة روحته ويديها ،  
فوحدها ساحة حذا ، فحس كيف تشكو من  
البرد ، وهي بهذه الحرارة المرتفعة .

وحاء كل لأصاء الموحدين في سبر ، ليعالحوا  
زوجة حاكمهم المريضة ، وفحصوا عنها فحفا  
دقيقا ، وكئنهم وقعوا في حيرة شديدة ، وراحوا  
يتهامسون فيما بينهم ، فهم أمام حالة غريبة من  
الحمتى ، لم تصادفهم من قبل ، وعلموا الأمر بأنه قد  
يكون نزلة برد شديدة ، وبدءوا يعالجون المريضة على  
هذا الأساس .

ومرت الأيام تلو الأيام ، وحالة المريضة تزداد

سوءاً ، فهي لا تكف عن الصُراخ من الألم ، ومن  
الرَّحمة التي أصابَتْها ، وإرداء نُحول جسمها ، وأيقن  
الحاكم من هلاكها . فاستدعى الأطباء وصرخ  
فيهم :

— افعلوا أيَّ شيء أيُّها الأطباء . أين عقايركم ،  
وأين خيوطكم ؟ أبقذوا زوجتي المسكينة من آلامها .  
ووقف الأطباء حائرين ، فقد عجزوا عن شفاها ،  
وحاروا في نزع الحمى العريضة التي أصابَتْها

» » »

وفي هذه الأثناء ، قمر فوق سور القصر صبي  
هدى صغير ، فأمسك به الحُرَّاس ودفعوه إلى  
السَّحَر ، وكَّنه صرخ يطلُّ مقابلة الحاكم ، فهو  
إنَّما جاء ليشفى زوجته المريضة .

وضجك منه الحُرَّاس ، وساقوه أمامهم بقسوة  
شديدة . وسمع الحاكم الضَّحَّة ، واستفسر عن

لأمر ، ونعمه ساقية الحسنى لتعبير ، فطلب  
إحصاره ، وسأله ساحرا .

— هل حنك حنك . تعبري ، ستمي روثي  
التي عجز كل قصه يبرو عن شذائها ؟  
أحاب الحسنى الهدي في سحابة :

— لا سحر مني يا سيدي الحاكم ، فهذه  
الحسنى مسخرة بين معشر اليهود ، وقد عرفنا دواءها من  
قدم ، ولم يمت بها أحد من تفصيل علاجات السحر  
لها . ولم عشت إلا أن تحترق دوتني ، فإن فشلت في  
علاج روثي ، فليكني أو فعل بي ما تشاء .

تعجب الحاكم بشجاعة الحسنى ، وقول له :  
— إن من عجز من الشجرة ، ولكنك أنت  
يا تعبري قد عجزت حنك . هيا ربا دواءك .

أحاب الحسنى في برود  
— بين معي دواء . ولكني أعمل بقوة السحر



عن محمد



وَبَرَكَهَ الْبَخُورُ . كَمَا أَنَّ لِي شَرْطًا هَامًا ..

فصاحَ الحاكمُ في غضبٍ :

— أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ جِئْتَ تَسْخَرُ مِنِّي ؟ أَيُّ سَحَرٍ

يَا فَتَى ؟ ، وَعَنْ أَيِّ شَرِيطٍ تَتَحَدَّثُ ؟

أَجَابَ الصَّبِيُّ فِي هُدُوءٍ :

— اسْتَمِعْ إِلَيَّ يَا سَيِّدِي الْحَاكِمُ ، سَوَاءٌ أَقْتَنَعْتُ

بِسَحَرِنَا أَمْ لَمْ تَقْتَنِعْ ، فَشَفَاءُ زَوْجَتِكَ رَهْنٌ بِقَبُولِكَ لِمَا

أَقُولُ ، وَالشَّرْطُ سَهْلٌ ..

كَانَ الْحَاكِمُ يَعْرِفُ مَقْدِرَةَ هُنُودِ أَمْرِيكَالْجَنُوبِيَّةِ ،

عَلَى شَفَاءِ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ ، فَسَأَلَ :

— وَمَا هُوَ شَرْطُكَ يَا صَغِيرَى الشُّجَاعِ ؟

أَجَابَ الصَّبِيُّ :

— إِنْ أُمِّي سَجِينَ عِنْدَكَ ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُطَلِّقَ سَرَاخَهُ

فَوْرًا ، وَسَرَاخَ بَعْضِ أَفْرَادِ قَبِيلَتِهِ السُّحْنَاءِ عِنْدَكَ ، قَبْلَ

بَدءِ الْعِلَاجِ .

تَعْجَبَ حَاكِمُ يَبْرُو مِنْ خُرَافَةِ الصَّيِّ ، وَأَعْجَبَ  
بِشَجَاعَتِهِ ، وَتَّ فِي الْأَمْرِ بِسُرْعَةٍ ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ شَعَرَ  
بِرَجْفَةٍ تَسْرِي فِي حَسَمِهِ ، وَالْأَمْرُ حَادٌّ يَعْصِرُهُ ، فَقَدْ  
خَشِيَ أَنْ يَكُونَ أُصِيبَ بِالْحُمَّى كَرُوحَتِهِ ، فَصَاحَ فِي  
قُوَّةٍ :

— لَكَ مَا تُرِيدُ ، إِلَّا أَنْ لِي — كَذَلِكَ شَرَطَا .  
سَأَلَ الصَّيِّ :

— وَمَا هُوَ يَا سَيِّدِي ؟

قَالَ الْحَاكِمُ :

— سَأَعْفُو عَنْ كُلِّ الْيَهُودِ الْمَسْجُوعِينَ ، إِنْ أَنْتَ  
أَطِغْتَنِي عَلَى سِرِّ دَوَائِكَ السَّحَرَى .  
قَالَ الصَّيِّ فَرِحَا :

— لَكَ مَا تُرِيدُ ، عَلَى أَنْ تُبْقِيَ أَنْتَ وَعِزُّكَ أَوَّلًا .  
فَأَمَرَ الْحَاكِمُ — لِدَهْشَةِ الْحَمِيمِ — بِإِطْلَاقِ سَرَاجِ  
الْمَسَاحِينِ الْيَهُودِ .

وأخرج الصَّيَّ من حَيْه ، عص قُشُور لأشجار ،  
وقال للحاكم :

— هذه قشور الشَّجرة أنتى تُقدِّسُها ، وأستطيعُ أن  
أُذِّكُ عني مكانها . وما عليك إلا أن تقطع هذه  
القُشُور في الماء أربعاً وعشرين ساعة ، ثم تشرُّبها  
المريضة في الصَّباح الباكر . وعند المساء — يادن الله  
— يُطرَدُ شيطانُ الصَّيِّ من جسم المريضة — إذا أنت  
أطلقت هذا البحر — كذلك — مع سائر العلاجات .  
والآن هل تسمحون لي أن أنصرف ؟

تناول الحاكم قشور الشَّجرة المُقدَّسة ، بعد أن  
دَّه الصَّيَّ على مكانها ، ووصف له شكلها ،  
وانصرف .

وألقي الحاكم بالبحر حابياً ، فهو يعلمُ جيِّداً أنَّ  
السَّحَر والخُرَافات لا شمسى الأمراض ، وأنَّ الله  
سُبْحانه وتعالى قد وضع السَّقاء في الدَّواء . فكما حق

الداء حتى به الداء وقع لحاكم قشور ، وهو  
يدعى بذلك كور الحمى صادق

وفي صباح يوم ثلثي ، مرت حاكم وشفت  
زوجته من مقروح القشور ، وكان شديد الحرارة غير  
مستساع ، ولم يمض يوم وليلة ، إلا واستعادت  
المريضة شاحها وحيويتها . وما هي إلا أيام قليلة ،  
حتى شفي من الحمى تماما . استمر الحاكم وزوجته  
على العلاج بضعة أيام ، لاسم عدد عرف حاكم  
مكان الشجرة المقدسة ، وأوصى عيها فيما بعد ،  
سم الحاكم عنه ، فسُميت « شجرة سيكونا »  
نسبة إليه ، ومنها أخذ فيما بعد دواء « كيبين » ،  
الدواء المعروف بعلاج حمى الملاريا ، التي أصابت  
زوجة الحاكم .

وكان بعد حاكم لفصل في إكمار من روعة  
هذه الشجرة ، والعبادة لها . حيث أفاد العامة فيما بعد

من هذا الدَّواءِ الحديد ، لعلاج حُمَّى المَلاَريَا ، أُنِى  
 تنشأُ عن حَرَائِمَ بِحِمْلُهَا فِي حُرْطُومِهِ بَوَءٌ مِنْ  
 البَعُوصِ ، فَعِنْدَمَا يَعْضُ الْإِنْسَانُ لِيَمْصَ دَمَهُ ، يُفَرِّهُ  
 جِسْمَهُ هَذِهِ الْحَرَائِمَ ، فَتَقِلُّ إِلَيْهِ عَدْوَى الْمَلاَريَا  
 وَتَمْضِي الْأَيَّامَ وَالسَّنُونَ ، وَالْإِنْسَانُ عَلَى عَهْدِهِ مِنْ  
 مَلَائِكَةِ السَّيْنِ ، يُحَارِثُ حَرَائِمَ الْأَمْرَاضِ ، فَهُوَ فِي  
 كِفَاحِهِ مِنْ أَهْلِ النِّقَاءِ ، يُحَارِثُ الْأَمْرَاضَ لِيَقْصِيَ  
 عَلَيْهَا ، أَوْ لِيُخَفِّفَ مِنْ آلَمِهَا قَدْرَ اسْتَطَاعَتِهِ ، لِمَا  
 يَتِيحُهُ لَهُ اعْلَامٌ مِنْ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ .

كان الرومان وأهل الإسكندرية منذ عهد بعيد ،  
يجرون بعض عسيات الجراحية ، ويستعملون في  
ذلك نباتاً محمراً سمه « امداحورا » .

وحكايتنا هذه المرة ، حدثت في سنة

١٨١١ م ،

عندما وُلد الطفل « جيمس سيمسون » في قرية  
« بيكر » بسكندرية . وُلد في أسرة فقيرة ، قررت  
أن تعتم ولدها الطِّب .

وشبَّ الفتى مع الأيَّام ، ودخل إلى عالم الطِّب ،  
وسرعان ما تفوق على زملائه ، وحقق آمال والده  
وأشقاءه الفقراء ، الذين صنعوا بكل ما يملكون ، رغم  
فقرهم الشديد ، في سبيل تعليمه . وشقَّ



« سب » . « طريقته في حياها صحت ، فصارت بعد  
تحرُّجه لشعظم المستشفيات مكتسب الحيرة ، أسي  
تؤهلُه لممارسة مهنته . وبدأت ستفزع في فترة  
وحيرة ، أن يصحح من أشهر أخطاء إبحرنا . وكان يتردد  
كثيرا على ألسنة الناس :

— نحن مديون سعادتنا « سيمسون » فقد  
أنقذ حياة عائلنا الوحيد .  
أو يقول غيرهم .

— لقد رددت إني حياتي ، وحققت آلامي .  
ورغم ذلك لم يستطع « جيمس سيمسون » ، أن  
يُحَقِّقَ آلام أقرب الناس إليه ، فقد قاسى أحوه أشد  
الآلام ، ولم يملك أن يصيح له شيئا .

وفي تلك الأثناء ، سنة ١٨٦٤ ، حاول أحد أطباء  
الأسنان ، أن يستعمل في تحديد المرضي ، حتى  
لا يشعروا بالآلام خلق أسنانهم ، غدا يُسمى « أكسيد

استرور » . ولكن نحاخه كان محدودا ، ودأت  
العماء على استعمال ذلك المخدر ، في تخفيف  
آلام البشر .

وراح « حيمس سيمسون » يُحرث ذلك المخدر  
في تخفيف آلام أحيه ، من دائه المستعصى .. داء  
السرطان الرهيب .

ولكن دون خدوى ، فقد مات أحوه وهو بصرح من  
آلامه ، ولم يستطع « سيمسون » أن يحقق عمه آلام  
الجراحة التي أحرث له ، لاستئصال أورمه .

وبذر « سيمسون » نفسه ، منذ تلك الحادثة ،  
للإنفراد بنفسه ، وعكف على الدراسة في عرقه ،  
وعزم على ألا يُعادرها إلا إذا توصل لاكتشاف مادة ،  
تريح المريض من آلام الجراحة المُرّخة .

ودأت يوم ، قال له الصيدائي الذي يتعامل معه :  
— اسمع يا سيمسون : لقد أحدثت متى أكثر من

مِائَةٌ وَخَمْسِينَ مَادَّةً كِيمِيَائِيَّةً ، وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مِنْ  
تَفَاعُلَاتِهَا ، إِذَا امْتَزَجَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ .

فَأَجَابَهُ سِيَمْسُونُ فِي هَدْوٍ :

— اسْتَمِعْ أُنْتَ إِلَيَّ .. فَاسْتَمِرُّ فِي إِحْرَاءِ تَجَارِييَ  
حَتَّى أَنْحَحَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، أَوْ يَحْتَرِقَ بِي الْمَكَانُ ، بِكُلِّ  
مَا فِيهِ مِنْ مَوَادِّ كِيمَاوِيَّةٍ .

وَدَاثَ يَوْمٍ ، وَنَاءً عَلَى الْهَاجِ شَدِيدٍ ، حَرَجَ  
سِيَمْسُونُ مِنْ مَعْمَلِهِ لِيَفْخَصَ عَنْ مَرِيضٍ جَاءَهُ يَصْرُخُ  
مَنْ الْأَلَمَ ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ اثْنَيْنِ مِنْ مُسَاعِدِيهِ ، يُوَاصِلَانِ  
إِجْرَاءَ التَّجَارِبِ الَّتِي كَلَّفَهُمَا بِهَا .

وَعَبَثَ أَحَدُ الْمُسَاعِدَيْنِ بِقَارُورَةٍ ، كَانَ سِيَمْسُونُ  
قَدْ مَرَّحَ فِيهَا بَعْضَ الْمَوَادِّ لِیُحْرِقَ عَلَيْهَا تَجَارِبَهُ ،  
فَسَقَطَتْ الْقَارُورَةُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَانْتَشَرَتْ رَائِحَتُهَا فِي  
الْمَكَانِ ، وَهَذَا الْمُسَاعِدَانِ يَسَامَانِ عَلَى الْقَوْرِ ، نَوْمًا  
عَمِيقًا .



محمود طه

وأُسرِعَ الحادِثُ الَّذِي يَعْمَلُ عِندَ سِيَمْسُون ، فَصَرَقَ  
عَلَيْهِ ابَ حُجْرَةِ الْكُفِّ فِي الْعِيَادَةِ ، وَقَالَ لَهُ وَهُوَ  
مَفْزُوعٌ :

... سُبْدَى ... تَقْدُرُ مُسَاعَدَتِي عَلَى الْأَرْضِ فِي  
الْعِيَادَةِ ، وَتُسَدُّ بِنَهْدِيَانِ كَلَامٍ غَيْرِ مَقْبُولٍ .

... سِيَمْسُونُ الْعِيَادَةُ مُسْرِعًا إِلَى مَعْمَلِهِ ، حَيْثُ  
وَجَدَ مَعْمَلَهُ يَغْضَبُ فِي يَوْمٍ عَمِيقٍ ، وَيَصْبِحَانِ  
أَتَمَّ مَذْعُومٍ ، فَصَاحَ مَذْهُوشًا .

... عَرِيتُ أَمْرُهُمَا ! وَلَكِنَّ الْمَكَانَ يَعْجُ بِرَائِحَةِ  
مَدِينَةٍ .. سَأَفْحَصُ عَنِ الْأَمْرِ ..

وتناول القارورة المسكينة ، وكان بها بقايا من  
مَرِجٍ ، فَصَبَّهَا عَلَى يَدَيْهِ وَشَمَّهَا مُتَفَحِّصًا ، وَإِنْ هِيَ  
إِلَّا حَصْبٌ ، حَتَّى رَمَى حَوَارِ مُسَاعِدَتِهِ .

وَنَظَرَ الْحَادِثُ مَشْدُودًا ، عِنْدَمَا رَأَى سُبْدَةَ  
« سِيَمْسُون » بَرَقْدَ حَوَارِ مُسَاعِدَتِهِ ، وَيَهْدَى

مثلُهما .

وعندما أفاق « حيمس سيمسون » أسرع  
باحتصار مريد من بيت المادّة ، وهو يصيحُ فرحاً :  
— الحمد لله ، فقد نجحتُ تحريراً ، وتوصّلتُ  
لاكتشاف مادّة « الكلوروفورم » .

فعلّق مُساعِدهُ ضاحكاً :

— إنّها مادّة غريبة ، حدّثنا وحملتنا إلى عالم  
الأحلام ، في دقائق ..

وبحسب استخدام « الكلوروفورم » في التّحذير ،  
واستعمله « حيمس سيمسون » في جراحاته ، وشاع  
ذكره في العالم أجمع ، بعد أن صفت « سيمسون »  
في كلّ مكان ، يُلقبُ المحاضرات عن فوائد التّحذير  
بالكلوروفوم .

وداهم « حيمس سيمسون » مرضٌ حويلٌ قاسٍ ،  
ومات في الثّامنة والخمسين من عُمره ، فحدّدهُ



العباد ، وَفَمَ لَهُ سِتْرٌ خُشِعَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْعِبَادَةُ :  
« بَارِكْ لَهُ فِيمَنْ كَثُرَتْ عَقْرِيَّتُهُ وَعُظُمَتْ ، تَحْمِيْقًا  
عَمَّنْ يُقَاسِمُونَ الْعِدَابَ »

لَقَدْ مَضَى ، سَيِّسَمُونَ « كَعْبَهُ مِنْ ابْنِ بَشَرٍ ، وَلَكِنْ  
بَعْدَ أَنْ وَضَعَ الْأَسَاسَ لِمَنْ حَادَّوْا بَعْدَهُ ، لِيُطَوَّرُوا  
اسْتِعْمَالَ تَحْدِيرٍ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ  
النَّجَاحِ .

وفي باريس سنة ١٨١٦ ، أتى بعد حشس سموات  
 من موليد « سيمسون » ، كان الطبيب « لبيث »  
 الذي اشتهر بحيائه الشديد ، يجلس في حدائق  
 اللوفر ، يفكر في أمور عيادته ومرضاه ، وكيف أنه  
 يضطر إلى وضع أذنه على صدور مرضاه ، ليتسمع  
 إلى نبضات قلوبهم ، حيث لم تكن توجد أداة طبية ،  
 لمعرفة هذه النبضات .

ولما كان من المحتمل أن تنتقل إليه ، من جراء  
 ذلك ، عدوى بعض الأمراض ، فصلا عن حيائه  
 الشديد من عمل ذلك ، لا سيما وأن أكثر مرضاه من  
 النساء ، فقد كان يفكر في وسيلة يكشف بها على  
 مرضاه ، دون أن يضطر إلى وضع أذنه مباشرة على  
 صدورهم .

وَمَرَّتْ لَهُ فِكْرَةٌ أَنْ يَضَعَ فَوْهَةً أَنْبُوبِيَّةً مِنَ الْوَرَقِ  
الْمَقْوَى فَوْقَ صَدْرِ الْمَرِيضِ ، وَيَضَعُ أُذُنَهُ عَلَى فَوْهَتِهَا  
الْبَعِيدَةِ وَيَتَسَمَّعُ إِلَى بَصَاتِ قَبِيهِ ، وَلَكِنَّ الْفِكْرَةَ لَمْ  
يَقْدِرْ لَهَا التَّجَاحُ .

وَفِيمَا هُوَ يَفْكُرُ فِي الْأَمْرِ ، وَبَعْضُ الْأَطْفَالِ يَلْعُونَ  
حَوْلَهُ فِي الْحَدِيقَةِ ، إِذْ لَاحِظٌ أَنَّ أَحَدَهُمْ يُمَسِّكُ عَصَاً  
صَغِيرَةً فِي يَدِهِ ، وَيُلْصِقُ أَحَدَ طَرَفَيْهَا بِأُذُنِهِ ، بَيْنَمَا  
يُحَكُّ طِفْلٌ آخَرَ ، عَلَى طَرَفِهَا الْبَعِيدِ سَنًّا بِمِسمَارٍ  
فَيَصِيحُ الصُّلُّ الْأَوَّلُ مَسْرُورًا :

— إِنِّي أَسْمَعُ حَكَّ الْمِسمَارِ بِوَضُوحٍ .

وَأَعْجَبَتْ افِكْرَةُ الدُّكْتُورِ « لِييْث » ، فَقَفَزَ مِنْ  
مَكَانِهِ ، وَاتَّحَهُ نَحْوُ الْأَطْفَالِ ، وَاسْتَأْدَنَهُمْ أَنْ يُشَارِكَهُمْ  
فِي لَعِبَتِهِمُ الطَّرِيفَةِ . وَرَحَّتْ بِهِ الْأَطْفَالُ ، وَوَضَعَ  
أَحَدُهُمْ طَرَفَ الْعَصَا عَلَى أُذُنِ « لِييْث » ، وَحَكَّ  
عَلَى طَرَفِهَا الْآخَرَ بِمِسمَارٍ ، فَسَمِعَ لِييْثُ صَوْتَ



حَثُّ المسمار واصحا ، فصاح بين دهشة الأطفال :  
— حمدا لله ، فقد وحدها أحيرا .

وجرى مُسرعا إلى عيادته ، حيث صَغَ سَمَاعَةٌ  
خشبيَّةٌ مجوَّفة ، راحَ يسمعُ بها نصاتِ قُلُوبِ  
مرصاه ، بأن يضعَ أحدَ طرفيها على صدرِ المريض ،  
ويضعُ أُذنه على طرفها الآخر ، فيسمعُ نبضاتِ قلبِ  
المريضِ واضحة . دونَ حاجةٍ إلى وضعِ أُذنه على  
صدره ، وتعرضه للخروج .

وهكذا كانتُ بدايةَ السَّمَاعَةِ الصَّيَّةِ .. سَمَاعَةِ  
الطَّيِّبِ الَّتِي نَرَاهُ الآنَ يضعُها على قُلُوبِ مرصاه .  
وضعَ بدايتها « لبيك » ، وجاء آخرونَ بعده  
فطَوَّروها ، حتَّى وصلتْ إلى ما هي عليه الآن .

وفى كندا ، فى السادس من يوية سنة ١٨٢٢ ،  
 كان الصيَّاد الكندي « أليكس سان مارتس » يصطاد  
 بعض الحيوان ، إذ انطلقت رصاصة خاطئة ، من  
 بندقيّة أحد زملائه ، واستقرت فى بطنه ، فأسرع  
 زملاؤه يستدعون أقرب طبيب .

وحاء الطبيب ، وكان يُدعى « وليم بومون »  
 وفحص عن الصيَّاد . فوجد أن الرصاصة احترقت  
 جدار البطن ، وأحدثت فيه فتحة كبيرة ، وكذلك  
 أحدثت فتحة فى جدار المعدة .

وقرّر الطبيب أن المُصاب لن يعيش طويلا ، ونقله  
 إلى عيادته ، ليخفف من آلامه حتى يموت . ولكنّه فى  
 اليوم التالى وجده لا يزال حيّا ، إذ كان الرجل يتمتّع

بِنِيَّةٍ قَوِيَّةٍ ، وَصَحَّةٍ خَارِقَةٍ ، فَأَدْهَشَهُ دَسْتُ ، وَرَاحَ يَهْتَمُّ  
بِالرُّحْلِ وَيَعْتَنِي بِهِ ، لِيَبْقَى عَلَى حَيَاتِهِ .. رَاحَ يُغَذِّيهِ  
بِالْمَحَالِيلِ ، وَيَضْمَدُ جِرَاحَهُ ، حَتَّى شَفِيَ تَمَامًا .

وَلَكِنْ أَغْرَتْ مَا فِي الْأَمْرِ ، أَنْ حُرِّحَ النَّطْبُ التَّامُّ  
عَلَى حَاةِ ، تَارِكًا فَتْحَهُ ، عَلَى حَافَتِهَا قِطْعَةً حَيَّةً  
مُلْتَمَّةً مِنْ لَحْمِهِ كَأَنَّهَا مِصْرَاعُ النَّافِذَةِ ، تَظْهَرُ مِنْ  
خِلَالِهَا أَمْعَاؤُهُ كُلُّهَا . وَكَذَلِكَ تَحْوِيفُ الْمَعِدَةِ ، لَمْ  
يَلْتَمِمْ جُرْحُهُ تَمَامًا ، وَتَعَلَّقَتْ فِي حَافَتِهِ قِطْعَةً صَغِيرَةً مِنْ  
الْجِلْدِ . وَعَاشَ الرَّجُلُ ، هَكَذَا طَوَالَ حَيَاتِهِ ، فَلَمْ يُؤْثَرِ  
دَلِيلٌ عَلَى عَمِيَّةِ الْهَضَمِ ، وَأَصْبَحَ الصَّبَاذُ « سَانِ  
مَارْتِنِ » أَعْحَوَةً غَصْرَهُ ، وَدَلِيلًا حَيًّا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ  
بَلْ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ « الْمَيْتِ الْحَيِّ »  
فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ قَطُّ مَوْفِقًا مِنْ شَعَائِهِ .

وَخَطَرْتُ لِلطَّيِّبِ « وَلِيمِ بَوْمُونِ » فِكْرَةَ جَرِيئَةٍ ..  
لَمَّاذَا لَا يَكُونُ هُوَ أَوَّلَ طَيِّبٍ يُطْلَى بِنَفْسِهِ ، وَيَفْحَصُ

بعينه المُجَرَّدَة عن مَعْدِهِ إِسَابٍ حَتَّى . وَيَرَاقِبُ  
مَا يَجْرِي فِيهَا ثَابِتَةً ثَانِيَةً ، وَذَقِيقَةً بِذَقِيقَةٍ .  
وَاتَّفَقَ مَعَ الصَّيَّادِ عَلَى ذَلِكَ ، وَعَاشَ مَعَهُ وَعَاشِرَهُ  
عَشْرَ سِنَوَاتٍ كَامِمَةً ، سَجَّلَ فِيهَا الطَّبِيبُ كُلَّ شَيْءٍ  
عَنِ الْمَعْدَةِ ، فِي كِتَابٍ أَصَحَّ هُوَ الْمَرْجِعَ الْأَسَاسِيَّ  
لِلطَّبِّ الْبَاطِنِيِّ ، وَمَا زِلَّ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي دِرَاسَةِ الطَّبِّ  
حَتَّى الْآنَ .



وتاريخُ حربِ الإنسانِ ضدَّ المرضِ ، تاريخٌ طويلٌ .. ومن أحدثِ وقائعِ هذه الحربِ ، استعمالُ المضادَّاتِ الحيويَّةِ ، ومركَّباتِ السِّلَفَا ، الَّتِي تقضى اليومَ على العديدِ منَ الجراثيمِ المُخطِّرةِ ، الَّتِي تنشأُ عنها أمراضٌ كثيرةٌ .

ففى سنة ١٩٠٤ ، اكتشفَ الطَّبِيبُ الألمانىُّ « بول أيرلنح » أنَّ إحدى موادِّ التلوينِ الحمراء ، تقتلُ الجراثيمَ فى جسمِ فأرٍ من فئرانِ التجاربِ ، دونَ أنْ تُؤثِّرَ على حياةِ الفأرِ نفسه .

وتلا ذلكَ أنْ أُحرى عالمُ ألمانيُّ آخرٌ ، اسمه « جيرهارد دوماك » تحاربه على الفئرانِ ، مُكمِّلاً تجاربَ « بول أيرلنح » وأعلنَ أنَّه توصَّلَ إلى اكتشافِ أنَّ إحدى مُركَّباتِ « السلفوبامايد » تُفَرِّدُ مادَّةً فى

الجسم ، تُغذَى عليها الجراثيم ، فتموت في الحال .

ولعلنا لو عرفنا شيئا عن بكتريا الأمراض ،  
لأنضحت لنا الصورة تماما :

فالبكتريا خلايا حية ، تنمو وتتكاثر في أنسجة  
الجسم ، وتمتص غذاءها منه ، وتفرز سموما تُسبب  
الأمراض . ولكن الجسم لا يقف عاجزا في مواجهة  
هذه السموم ، فهو يدافع عن نفسه ويفرز ما يُسمى  
بالأجسام المضادة . التي تتعاون مع كريات الدم  
البيضاء ، في القضاء على البكتريا ، فتعادل وآثار  
تلك السموم .

ولكن البكتريا في بعض الأحيان ، تتكاثر بشدة ،  
فتقتل كريات الدم البيضاء ، وتلحق بالجسم البشري  
أضرارا كثيرة . ولولا ما يكشف عنه العلماء ، لما  
استطعنا أن نتغلب عليها قط .

ففى سنة ١٩٢٨ بينما كان العالم « الكسندر فيلمنج » يقوم بإحدى تجاربه ، لتربية نوع من البكتريا فى طبق صغير ، إذ لاحظ تكوّن قرص صغير من الفطريات ( العفن ) لونه رمادى أخضر . وكان من الممكن أن يُلقى بهذا الطبق فى القمامة ، حيث لا يخدم الغرض من تجربته ، ولكنه لاحظ فى الطبق ظاهرة بالغة الأهمية ، إذ كان هذا الفطر الغريب متكوّنًا فى الطبق ، وحوله دائرة ليس بها أية جرثومة ، أمّا خارج الدائرة ، فالجراثيم موجودة .

وأعاد « فيلمنج » التجربة وقد استهواه الأمر . وبعد تجارب عديدة ، وجد أن هذا العفن السحري ، الذى أطلق عليه فيما بعد اسم « البنيسليوم » ، يُنتج مادة لها قدرة خارقة على إيقاف نمو الجراثيم .

ولما كان اسم هذا العفن السحري « البنيسليوم » فقد سُميت المادة التى يُنتجها « البنيسلين » .

وحاول «الكسندر فيلمنج» إنتاج هذا الفطر العجيب بكميات كافية ، لعلاج الأمراض عند الإنسان ، ولكنه لم يستطع .. إلى أن تمكن من ذلك سنة ١٩٤١ السيد « هواري فلورى » هو وبعض زملائه فى جامعة أكسفورد .

وبعد تجارب عديدة ، اتضح أن « البنيسلين » الذى ظن الناس أنه يقضى على كل أنواع الجراثيم والبكتيريا ، ليست له تلك القوة السحرية التى تخيلوها ، فهو يقضى على بعض الأنواع دون غيرها . واستأنف البحث من جديد ، حتى توصل العلماء إلى اكتشاف أنواع عديدة من العلاج بالمضادات الحيوية ، التى يقال لها « أنتى بيوتيك » فأصبح فى وسع الأطباء الآن ، أن يختاروا منها أكثرها فاعلية ، وأنسبها لنوع المرض التى يرغبون فى علاجه . ومع ذلك ، فلا يزال هناك مرض السرطان

الخبِيث ، يَقِفُونَ أَمَامَهُ عَاجِزِينَ حَتَّى الْآنَ ، وَلَكِنَّهُمْ  
لَا يَتَأْسُونَ ، فَقَدْ نَجَحُوا فِي شِفَاءِ بَعْضِ حَالَاتِهِ .  
وهكذا لا يزال الإنسان يحاول جاهداً من أجل  
البقاء .. من أجل مُحَارَبَةِ الأمراض .. من أجل حِكَايَةِ  
جَدِيدَةِ تَغْيِيرِ الدُّنْيَا .